المغرب على عهد الوطاسيين

أحمد الصديقي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء

تؤرخ مرحلة عهد الوطاسيين بالمغرب الأقصى إلى نهاية حقبة العصر الوسيط والتمهيد لفترة جديدة وُسمت بالعصر الحديث، وقد رافق هذا الانتقال عددا من التحولات التي منحته الخصوصية، ويبرز ذلك أساسا في الانتقال من مرحلة الدول القائمة على العصبية القبلية التي بنى عليها ابن خلدون نظريته في قيام الدول وسقوطها بالغرب الإسلامي؛ إلى مرحلة الدول المعتمدة على ثابت النسب الشريف. ومن اقتصاد الوساطة التجارية بين إفريقيا وأوروبا، إلى اقتصاد أنهكته الكوارث الطبيعية وتراجع دوره المعتمد على تجارة القوافل الصحراوية لصالح تجارة المحيط الأطلنتي؛ بوصول الأوربيين خاصة البرتغاليين إلى مصادر الذهب بخليج غينيا في إفريقيا الغربية. ومن محورية القبيلة في البناء الاجتماعي إلى الحضور الوازن للولاية والصلاح، ومن مرحلة التوثب والاندفاع الحضاري إلى مرحلة الانكماش والدفاع، وبذلك تحول الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية خلال القرن 9هـ/ 15م[1] إلى صفعة موجعة أفرزت هذا المنعطف التاريخي، الذي انزوى فيه المغرب وترك المبادرة للقوى الأوربية التي استغلت مواطن الضعف، ووسعت من نفوذها، وعمقت من تجاوزها للمغرب، فضلا عن تحديات التهديدات التي بدأت تلوح في الجهة الشرقية، بفعل تمدد العثمانيين ووصولهم إلى المغرب الأوسط (الجزائر).

ومن الناحية المنهجية لا بد من الإشارة إلى أن مظاهر هذه التحولات بدت بالترهل الذي لحق المستويين الفكري والثقافي، وذلك بانحصار مستوى التأليف والكتابة، لا سيما على مستوى المعارف التاريخية، فبقدر الألق الذي تحقق خلال العهد المريني، فقد اتسم عهد الوطاسيين بالقلة والندرة، مما انعكس سلبا على مقاربة تاريخ هذه المرحلة، وظلت بفعل شح مصادرها خارج دائرة اهتمام الباحثين إلا لماما. ولهذا السبب لم يجد مؤرخا مثل خالد الناصري بُدّا من الاستعانة بمصادر أجنبية في تأريخه لمرحلة الغزو البرتغالي للمغرب[2].

[1] - يبدأ القرن 9هـ/ 15م في المغرب الأقصى باحتلال مدينة سبتة سنة 818هـ/ 1415م، وينتهي ببيعة أول أمراء السعديين محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله عام 916هـ/ 1511م.

[2] - خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م، 92/4. 116.

ويعد كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان[3] (ت. بعيد 1550م) أهم مصدر على الإطلاق لهذه الفترة، ونظرا لهذه الأهمية فقد انبرى عدد من الباحثين لمقاربة عدد من قضاياها في دراسة موسومة بـ"المغرب في عهد الوطاسيين من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان"[4].

كما أن هذا الشح في المادة المصدرية المحلية قابله اهتمام عدد من الباحثين المغاربة -في الآونة الأخيرة- بالمصادر والوثائق والمراسلات الأجنبية وخاصة البرتغالية حول المغرب سواء بدراسة مضامينها[5] أو تعريبها[6] لتسويد كثير من البياضات المعرفية إبان هذه الفترة. ورغم هذه الجهود فإن كثيرا من الإشكالات المعرفية والمنهجية، ظلت تتطلب مزيد من التحري والتدقيق، والعمل على التنقيب في متون مصدرية عديدة سابقة أو لاحقة لهذا العهد، بهدف تتبع تطور بعض الظواهر وفق منظور الزمن الطويل، أو دراساتها وفق سياقات متعددة، لا سيما على مستوى السياق الاجتماعي.

1-التحولات السياسية:

تزامنت بداية الغزو الإيبري للمغرب مع تفكك البنية السياسية للدولة المرينية، وظل الصراع على الحكم أحد أهم مظاهر هذا التفكك، حيث برز دور الحجاب والوزراء وقادة الجيش في توجيه الحكم، وتفشي الاغتيالات داخل البيت المريني، واندلاع عدد من الثورات وخراب كثير من مدن ومناطق المغرب، وتخلى السلاطين عن أدوارهم السياسية، وتركوا الحكم للحجاب والوزراء وهو ما أدى في النهاية إلى انفراد الوطاسيين بالحكم.

---

[3] - الحسن الوزان (ليون الأفريقي)، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت- دار الغرب الإسلامي، الرباط- الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1980 و1982، جزآن.

[4] - المغرب في عهد الوطاسيين من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان، تنسيق محمد استيتو، ضمن سلسلة دراسات وأبحاث تاريخية، منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، 2011م، ضم الكتاب عدد من الدراسات مثل: عثمان المنصوري، "وصف أفريقيا" للحسن الوزان مصدرا لتاريخ المغرب، (ص9-26). محمد استيتو، فائدة كتب الرحلات والجغرافية في كتابة التاريخ الاقتصادي للمغرب: أنموذج "وصف أفريقيا" للحسن الوزان، (ص27- 63). علاوة عمارة، إشكالية الهوية المغاربية من خلال جغرافية الحسن الوزان، (ص65- 80). الحسين عماري، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب "وصف أفريقيا"، (ص81- 98). محمد عمراني، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في جبال الريف والهبط من خلال كتاب "وصف أفريقيا"، (ص99- 130).
Laghraib El Hassane, Le Maroc du XVIème siècle d'après Léon l'Africain: les juifs et leurs activités, (p3-38)

[5] - نذكر في هذا الصدد: دراسات أحمد بوشرب من قبيل: وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 1997م. والمغرب في القرن الخامس عشر 1415 - 1510م، أضواء على قرن مغمور، تقديم أحمد التوفيق، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 2021م.

[6] - نذكر مثلا: دافيد لوبش، التوسع البرتغالي في المغرب، ترجمة عثمان المنصوري، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، 2020م. شمال المغرب من خلال وثائق برتغالية 1415- 1490م، ترجمة وتقديم أحمد بوشرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع. تاريخ العالم في القرن الخامس عشر، تنسيق بيير موني وجوليان لو ازو ويان بوتان، إشراف باتريك بوشرون، نسق الترجمة وراجعها لطفي بوشنتوف، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء والمركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، 2022م.

لم يمهل ثوار مدينة فاس بزعامة خطيب جامع القرويين عبد العزيز الورياغلي آخر سلاطين المرينيين السلطان عبد الحق حيث قتلوه وأنهو بذلك عهد الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، وحملت الثورة مزوار الشرفاء الأدارسة محمد الشريف الإدريسي الجوطي إلى الحكم سنة 869هـ/ 1465م، وكان ذلك تتويجا للسياسة المرينية التي قامت على الاعتناء بأهل البيت منذ عهد السلطان أبي يعقوب (ت.685هـ/ 1286م)[7]، إلا أن تجربة حكم الأشراف بقيادة الشريف الجوطي لم تدم طويلا بعد محاصرة الوطاسيين لفاس، حيث تمكنوا خلالها من دخول المدينة والقبض عليه ونفيه إلى تونس.

وبدخول محمد الشيخ (1471- 1504م) فاس تبتدئ مرحلة حكم الوطاسيين سنة 876هـ/ 1471م، ومنذ ذلك الحين أعلنوا نيتهم التصدي للتدخل الإبري، لكسب المشروعية خاصة من قبل الفقهاء ومتصوفة الجزولية، وتمكن الوطاسيون في بداية عهدهم من الدخول في وفاق مع القبائل المعقيلية لتأمين الحركة التجارية، رغم التحديات الطبيعية التي أذنت بتوالي فترات من الكوارث الطبيعية مثل الجفاف والمجاعات والأوبئة والطواعين..[8].

وبالموازاة مع ذلك؛ فإن السياق المغربي لم يكن معزولا عن تحولات غرب المتوسط، حيث سقطت غرناطة في يد الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا (Isabella) وفرديناند(Ferdinand) مطلع سنة 898هـ/ 1492م بعد سنتين من الحصار البحري الخانق، فتدفقت هجرة الأندلسيين نحو المغرب، وتسارعت بوثيرة أكبر مما كانت عليه منذ النصف الثاني من ق8هـ/ 14م.

لقد استقر هؤلاء المهاجرون بالمدن مثل طنجة وتطوان وسلا وأسفي وأزمور وغيرها، وبعضهم فضل المكوث بالقرى المغربية بين ظهراني القبائل مثل غمارة بالريف، واشتغل عدد منهم بوظائف ومهن مدنية مثل الهندسة والطب والكتابة الديوانية والقضاء والتدريس، وعمل آخرون جنودا في فرق الرماية والمشاة أو قادة للأساطيل العسكرية، في حين انخرط أكثرهم في عمليات الجهاد البحري، كما استعان الوطاسيون ببعضهم كجند في حربهم ضد السعديين.

ومن أجل مد نفوذهم على مجال المغرب الأقصى، عمل الوطاسيون على التقرب من عدد من الزعامات المحلية عن طريق المصاهرة، والسماح لبعض المهاجرين الأندلسيين مثل المنظري الغرناطي ببناء مدينة تطوان، ومولاي علي بن راشد بإنشاء مدينة شفشاون، لممارسة الجهاد البحري مع اشتراطهم التبعية

---

[7] - محمد القبلي، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط مقدمات أولية وقضايا، منشورات الفنك، الدار البيضاء، 1998م، ص43. نفسه، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987م، ص62-63.

[8] - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، 1406هـ، 1986م، ص27-28. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط المغرب، الطبعة الثالثة، 1427هـ/ 2006م. ص6.

ولو "اسمية"، إلا أن تلك المساعي لم تنجح مع مجال الجنوب المغربي الذي ظل عصيا على التدخل الوطاسي، وبقي تحت نفوذ الزوايا والزعامات المحلية.

إلا أنه بالتزامن مع بداية تزايد خطر الشرفاء السعديين بالجنوب المغربي، انقسم المغرب إلى مملكتين: الوطاسيون وعاصمتهم فاس، والسعديون وعاصمتهم مراكش، ولما أحس الوطاسيون بميل كفة القوة لصالح غرمائهم؛ عمد بعض أمرائهم إلى مهادنة البرتغاليين للتفرغ لمواجهة التهديدات الداخلية، وهو ما ألب عليهم طيف كبير من الأولياء[9] والفقهاء، ولم تفلح مساعيهم في ثني السعدين من التقدم إلى فاس، التي دخلوها سنة 955هـ/ 1543م، وقضوا على آخر أمرائهم بوحسون الوطاسي.

2-التحولات الاقتصادية:

دخلت الدولة المرينية بعد مقتل أبي عنان مرحلة صعبة، اختلت فيها موارد الخزينة مما فرض عليها توسيع وعائها الضريبي، الذي أثقل كاهل المجتمع بما فيهم الأشراف، حيث انعكست هذه السياسة الضريبية مباشرة على أوضاع الشرفاء الأدارسة وحدّت من امتيازاتهم الاقتصادية، وكانت سببا كافيا لإعلانهم الثورة بمعية فئات اجتماعية أخرى مساندة من الفقهاء ومتصوفة الشاذلية بفاس ضد الحكم المريني[10].

أما الوطاسيون فرغم جهود التهدئة التي قادوها، فقد ظلت القبائل البدوية تعرقل بسط نفوذهم على كامل التراب المغربي[11]، وقلصت من منسوب مواردهم الجبائية، فاضطربت سياستهم بفعل صعوبة مواجهة التحديات الداخلية، إذ "حدثت فتن بين المسلمين، ودامت فيهم، واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو"[12]، فعسر التوفيق بين دعم الجهاد الذي يكسب الدولة المشروعية، ومهادنة البرتغال التي تنزعها عنها. وبذلك ظل الوطاسيون يعانون من محدودية الموارد الاقتصادية وضيق مجالات النفوذ، خاصة وأن عهدهم تزامن مع تحولين مفصليين:

- التحول الخارجي: المفعم بمنطق التجاوز، حيث استفحل نزوع الدول الإبرية نحو التهديد الفعلي للشواطئ المغربية، وسعيها إلى التوسع والسيطرة تدريجيا على السواحل، للتحكم والاستحواذ على الخيرات الاقتصادية للمغرب الأقصى[13].

---

[9] - ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1976م، ص59-60.

[10] - محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص63. 97. 101-102. 116.

[11] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، 99/1. جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص27-28.

[12] - خالد الناصري، الاستقصا، 109/4.

[13] - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص5. عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا بين القرنين 15 و18م (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012م، ص10.

- التحول الداخلي: الذي طرأ على البناء الاجتماعي المغربي، وذلك بإحلال الزاوية محل القبيلة في الهيمنة على هذا البناء، وانتشار قيم جديدة تزامنت مع توسع نفوذ شيوخ الزوايا، الذين أصبح لهم أدوار اجتماعية واقتصادية وسياسية مهمة، فأسهموا من خلال ذلك في ترميم الشرخ الذي أصاب البنية الاجتماعية والثقافية بفعل هول الغزو الأجنبي، الذي أصاب الذهنية المغربية في مقتل.

لقد انعكست هذه التحولات سلبا على الاقتصاد المغربي، إذ أصبحت المبادلات التجارية مع أوربا تحتكرها الوساطة البرتغالية، وتسببت في تضرر تدفقات التجارة الصحراوية القوافلية، منذ احتلال البرتغاليين لمدينة سبتة سنة 818هـ/ 1415م[14]، وهي التي ظلت لقرون نافذة المغرب على العالم المتوسطي، بامتداداتها التجارية مع سجلماسة وفاس، ومكنهم احتكار وسائل النقل البحري من الوصول مباشرة عبر المحيط إلى مصادر التجارة بخليج غينيا في إفريقيا الغربية، وهو ما زاد من انكماش وتدهور الحركة التجارية ومعها الاقتصاد المغربي، الذي ظل يعاني أصلا من توالي الكوارث الطبيعية[15].

كل ذلك ساعد البرتغاليين على بسط نفوذهم على أغلب المراسي المغربية خلال القرن 9هـ/ 15م، خاصة وأنهم كانوا يدركون أن "المغرب كان دائما بلدا فلاحيا، بإنتاج غني في الحبوب، وكانت سهول واجهته المحيطية الواسعة ولا زالت خزانات للبلاد في القمح... وكانت دولة البرتغال تعاني من النقص في القمح، منذ أن بدأت الملاحة"[16]، فحولوا تلك المراسي إلى قواعد للإغارة على القبائل المغربية لنهب محاصيلها وسلب ماشيتها.

وغني عن القول؛ إن المغرب لهذا العهد ظل مستمر في منح الأسبقية للتجارة وإن لم تتناسب حركتها مع نمو الإنتاج الزراعي والحرفي[17]، الذين ظلا مرهونين لبنيات عتيقة لم تتطور، ولم تتجاوز في الغالب تلبية الحاجيات الضرورية لا سيما لسكان المدن، متأثرة بضعف الأمن الناتج عن غياب سلطة سياسية حامية، حتى إنه كان "في هذه الفترة من الزمان عدة أمراء يتقاسمون السيادة، ذلك ما جعل الكثير من الحواضر تنفرد باستقلالها، ولم يكن حينئذ لملوك بني وطاس ما يلزم من السلطة، لبسط نفوذهم على مجموع تراب موريطانيا الطنجية"[18]،وهو ما ساهم في تَنَمّر القبائل البدوية التي تسيّدت الموقف في عدد من مناطق المغرب، فتراجعت الفلاحة، وضعفت موارد التجارة، وعم الانزواء، وأفرغت البوادي، وانغلقت الجبال،

---

[14] - للتوسع في موضوع الاستعدادات وترتيبات غزو البرتغاليين لمدينة سبتة ينظر: دافيد لوبش، التوسع البرتغالي في المغرب، ص9-14. وعن أهمية مدينة سبتة على المستوى الاقتصادي قبيل الاحتلال البرتغالي ينظر: محمد بن القاسم بن عبد المالك الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، خرجه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1969م.

[15] - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص28.

[16] - دافيد لوبش، التوسع البرتغالي في المغرب، ص22.

[17] - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص335.

[18] - مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 1984م، 450/1.

وقويت شوكة الأجانب، فشحت موارد الخزينة، التي أصيبت في مقتل؛ ولم تعد للوطاسيين خيارات كثيرة، فأصبح المغرب يعيش في نظام شبه مغلق، فانعكس ذلك سلبا على الوضع الاقتصادي العام، حتى غدا "دخلهم جد ضئيل، ونصف الدخل الضريبي يكون عينيا"[19].

وبالموازاة مع ذلك، فإنه باحتلال سبتة أصبح المغرب يشكل قاعدة لعمليات الجهاد البحري ضد البرتغاليين والإسبان، الذين لم يتخلوا مطلقا، وبالتناوب، عن مشروع غزو البلاد[20]، نظرا لموقعه الجغرافي كأقرب نقطة إلى غرب أوروبا الناهضة، وهو ما ساهم في تقوية الأطماع والتنافس الحاد حوله، ولذلك كان غزوه تبشيريا ووحشيا[21]، فإذا استسلم البعض حفاظا على مصالحهم، فقد حفز الأغلبية على استنهاض همم المغاربة، واستنفرهم للجهاد الممزوج بالعاطفة الوطنية[22]، وإن تحول من جهاد هجومي في العلاقة الحضارية بأوروبا إلى جهاد دفاعي يروم صيانة الذات والهوية رغم الفراغ السياسي[23]، يصف الناصري هذا الوضع بالقول "ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين، واستيلائه على ثغور المسلمين، تباروا في جهاده وقتاله... فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا... ولذلك ألّف الناس في ذلك العصر التآليف في الحضّ على الجهاد والترغيب فيه، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا، ونظم الأدباء والشعراء فيه ونثروا..."[24].

3-التحولات الاجتماعية والدينية:

لقد شهد القرن 9هـ/ 15م أوج حركة التصوف المغربي، بما راكمته من رأسمال رمزي عمّ مختلف الفئات الاجتماعية، بفعل الأدوار التي قام بها المتصوفة، وكشفت عنها كتب المناقب؛ ولعل أبرزها اضطلاعهم بمهام أمنية وسياسية حدّت كثيرا من الفتن والصراعات، لاسيما في البوادي[25]، والقيام بأدوار

---

[19] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، 223/1. عبد اللطيف الشادلي، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء 1989م، ص257-261. عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا بين القرنين 15 و18م، ص98. 116.

[20] - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص167. 291-292.

[21] - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص8. أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور (قبيل غشت 1481 - 1541م)، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1984م، ص437.

[22] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، 1-117-120. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1977م، 1/41-42. 216.

[23] - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ص 168-169. عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا بين القرنين 15 و18م، ص20.

[24] - خالد الناصري، الاستقصا، 111/4.

[25] - يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، نشر كلية الآداب أكدال، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984م، ص309، عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982م، ص144. ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965م، 86-87.

الوساطة وإصلاح ذات البين بين الحكام والرعية[26]، وترسخت أدوارهم الاجتماعية بفعل عمليات الإطعام[27] وطلب الاستسقاء لا سيما في أزمنة تفشي الأوبئة والقحوط والمجاعات، وبرزت بهذا الصدد الكرامة الصوفية كمحدد قوي للحضور الوازن للولاية زمن القِلّة والندرة[28]، فضلا عن أدوارهم الاستشفائية[29] والتعليمية[30] وغيرها، وهو ما رسخ ثقة واعتقاد الناس بصدق كراماتهم، ورفع من مستوى حضورهم الاجتماعي والروحي.

وكان من أهم مظاهر هذا التحول الاجتماعي ترسيم مرجعية موحدة في التصوف، ويتعلق الأمر بالطريقة الشاذلية[31] التي عمت المغرب، على غرار المذهب المالكي في الفقه والعقيدة الأشعرية في التوحيد. وهو ما أقره الشيخ عبد الواحد بن عاشر (ت.1040هـ/ 1630م) في قوله:

في عقد الأشعري وفقه مالك *//* وفي طريقة الجنيد السالك

لقد أجمعت جل الدراسات التي قاربت موضوع الشاذلية، أن انتشارها وتوسعها كان بفضل الأعلام الثلاثة، بدأ بابن عباد الرندي ومرورا بابن سليمان الجزولي وصولا إلى أحمد زروق.

عمل الشيخ محمد بن عباد الرندي[32] (ت.792هـ/ 1390م) على تثبيت جذور الشاذلية التي نسبت إليه، حتى شاع القول بأن "أفضاله على الشاذلية بالمغرب تعادل أفضال ابن رشد الجد (ت.520هـ/ 1126م) على المذهب المالكي بالمغرب"[33]، ويعد ابن عباد واحد من كبار مريدي الشيخ أحمد بن عاشر السلاوي (ت.764هـ/ 1362م)، الذي تبنى الشاذلية من خلال عكوفه على الاطلاع على مصادر التصوف. وعبر هذا

---

[26] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص252.

[27] - محمد القبلي، حول تاريخ المجتمع المغربي، ص25.

[28] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص220. 310. 323. 333. 338. 382. 400. البادسي، المقصد الشريف، ص106. ابن قنفذ، أنس الفقير، ص23. 77. 79. 84. محمد بن أبي بكر الحضرمي، السلسل العذب والمنهل الأحلى، تحقيق مصطفى النجار، نشر الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، 1988م، ص34-41.

[29] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 84. 132. 141. 217. 220. 233. 269. 304. 353. 391. البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف، ص53-54. 91. ابن قنفذ، أنس الفقير، ص29. 84. الحضرمي، السلسل العذب، ص68. 74. 75.

[30] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 147. 272. البادسي، المقصد الشريف، ص118. 127. 131. ابن قنفذ، أنس الفقير، 20. 24. 65. 77. الحضرمي، السلسل العذب، ص81.91.

[31] - تنسب الطريقة الشاذلية إلى الإمام أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الإدريسي الحسني الشاذلي، ولد بغمارة سنة 593هـ/ 1197م، وتتلمذ على يد الشيخ عبد السلام بن مشيش في حدود عام 622هـ/ 1225م، تقوم طريقته في التصوف على العمل بالكتاب والسنة والجمع بين الشريعة والحقيقة، توفي بصعيد مصر عام 656هـ/ 1259م.

[32] - ترجمته عند أحمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، 341/5.

[33] - محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الانفاس، الطبعة الحجرية، فاس، 1316هـ، 1420/2.

السند اعتبر ابن عباد طريقته خاتمة الطرق الصوفية وناسخة لها، حيث جمعت بين العمل على نشر الشاذلية والدعوة إلى الإصلاح، لا سيما بعد تدهور الأوضاع بعد مقتل السلطان أبي عنان المريني.

وقد ساعد على انتشار الحركة العبادية ولاء صاحبها للدولة المرينية التي حرصت على رعايتها، وما من شك أن مكوثه خطيبا بجامع القرويين لحوالي خمسة عشر (15)[34] عاما يؤكد على متانة هذه العلاقة، وأثمر هذا التوافق بين الحركة والدولة وضع قاطرة التصوف المغربي على سكة الطريقة الشاذلية.

ومن أجل استثمار ذلك؛ وضع ابن عباد برنامجا إصلاحيا لعلاج فساد زمانه، بسط خطوطه العريضة في رسائله، التي أجملها في كون الإصلاح يبدأ بالدين والنصيحة لأولي الأمر، وجعل طلب التصوف أسبق من طلب التفقه، وعمل على ترسيخ فكرة أهمية أرباب الزوايا، خاصة عند المُلمات، وعمد إلى إصلاح السلطة العلمية لمواجهة تداعيات الجهل والقصور في تبليغ الدين، وانشغل بتقليل الهوة القائمة بين الفقهاء والمتصوفة. ولذلك أضحت للحركة العبادية الشاذلية مكانة دينية خلال ق9هـ/ 15م، تنضاف لمكانتها الاجتماعية والاقتصادية حيث تحكمت في موارد هائلة من الأحباس.

لقد خلّف الشيخ ابن عباد بفاس عددا من المؤلفات في مجال التصوف، لا سيما كتابه "التنبيه"، فضلا عن عدد من المريدين الذين استمروا على نهجه وطريقته سواء بفاس أو غيرها من المناطق المغربية، مثل الشيخ يحيى السراج الرندي (ت.803هـ/ 1400م) والشيخ محمد بن السكاك صاحب كتاب "نصح ملوك الإسلام". وظل مسلكهم قائم على التوافق مع الدولة، وبذلك نال محبة وتقدير أهل فاس التي استقر بها حتى شاع القول بأن محبتهم له تعادل محبة أهل مصر للشافعي[35]، ولما مات "حضر جنازته الأمير، وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به، ولم أر جنازة أحفل ولا أكثر خلقا منها"[36].

أما الشاذلية الجزولية فتنسب للشيخ محمد بن سليمان الجزولي (ت.870هـ/ 1466م)، الذي بدأ رحلته العلمية إلى فاس خلال العقود الأولى من القرن 9هـ/ 15م، ومنها انطلقت حركته منذ إقامته بهذه المدينة عقب عودته من رحلته الحجازية، حيث وافق مكوثه بفاس هيمنة الشاذلية العبادية.

لقد تمكن ابن سليمان الجزولي من جمع تأليفه "دلائل الخيرات" اعتمادا على خزانة جامع القرويين وبالأخص كتب ابن عباد، والتي تشرب أفكارها ونال منها مبتغاه في التصوف المغربي، بعد أن بدأ بالانتساب إلى الشاذلية المشرقية المصرية بواسطة شيخه عبد العزيز العجمي، ثم انتقل إلى الشاذلية المغربية بواسطة شيخه أبي عبد الله أمغار الصغير شيخ رباط تيط.

---

[34] - أحمد المقري، نفح الطيب، 344/5.

[35] - نفسه والصفحة نفسها.

[36] - نفسه، 343/5.

وبالموازاة مع ذلك فقد ظل يتتبع الوضع الذي استبد بمعاصريه عندما أشرفت الدولة المرينية على الهرم، وبدأ بتشكيل تصور إصلاحي اعتمد فيه على الأخذ من الألفية ما يناسب دعوته، وأضاف المهدوية والخَضرية إلى الشاذلية، مستغلا الفراغ السياسي بالجنوب المغربي، فبدأت حركته في بسط هيمنتها الروحية على مختلف الطوائف المتغلغلة بالجنوب المغربي ضمن غلاف الشاذلية، وبذلك عملت على ملء الفراغ السياسي، وتأطير المجتمع، وقيادة حركة الجهاد ضد العدو البرتغالي، ومحاربة المتعاونين معه[37].

ومن أجل مدّ مجال نفوذه الروحي شمالا، استغل الإمام الجزولي استقلال ثغر أسفي عن مراكش وتواطؤ قائده مع البرتغاليين بدخوله تحت حمايتهم سنة 865هـ/ 1460م، فتم إعلان الجهاد ضدهما، كما استفادت حركته من سقوط الدولة المرينية سنة 869هـ/ 1465م، فارتفع منسوب انتشارها وتوسعها بالمغرب، إلا أن تمدد نفوذ الحركة الجزولية خلال فترة الاضطرابات تزامن مع مقتل عبد الحق المريني ومقتل الإمام الجزولي نفسه.

انشطرت الحركة الجزولية بعد مقتل إمامها إلى شطرين، تزعم الأول عمر المغيطي الشياظمي الذي تزامن عهده مع حكم الشريف الجوطي وبداية عهد الوطاسيين بفاس، واستمر على دعوة شيخه، إلى أن قتل سنة 890هـ/ 1485م، أما الثاني فقد تزعمه الشيخ محمد الصغير السهلي (ت.918هـ/ 1512م)، الذي اتصل بالحركة الشاذلية الزروقية بفاس، وجنحت حركته إلى المسالمة حيث بايع تلميذه الشيخ عبد العزيز التباع (ت.914هـ/ 1508م) الوطاسيين، الذين قدموا له يد العون على إنشاء أول زاوية جزولية بفاس.

وإذا كانت الشاذلية الجزولية قد تمكنت من بسط نفوذها على مجال واسع يمتد من الجنوب المغربي إلى فاس، فإن الحركة الزروقية نجحت في تعميم وتمدد الشاذلية على مجمل التراب المغربي.

تنسب الزروقية إلى الشيخ أحمد زروق (ت.899هـ/ 1493م) الذي نشأ في كنف الشاذلية العبادية بفاس، وشرع في معاناة العلوم بجامع القرويين والمدرسة البوعنانية، وقد توثقت صلته بالشاذلية العبادية منذ صغره وهو يتعلم حرفة الخرازة، وترسخت لديه خلال مرحلة الطلب، حيث ارتبط بأحد أشياخها محمد القوري وتمكن من تأليف شروحه في "الحكم العطائية" وهو في ريعان الشباب سنة 870هـ/ 1465م[38]. ويعد هذا التأليف ميلاد الحركة الشاذلية الزروقية الذي تزامن مع نهاية الدولة المرينية.

قام أحمد زروق برحلة حجية، وأخذ خلالها على عدد من العلماء وأقطاب التصوف المشارقة، وبايع حينها الشريف الجوطي الإدريسي وبعده بايع الوطاسيين، قام مشروعه الإصلاحي على توحيد الحركة الشاذلية المغربية والوصل بين العبادية التي يحمل إرثها والجزولية بشطريها والزروقية الناشئة، والتي أفلحت فيما فشلت فيه العبادية والجزولية خاصة في استقطاب العلماء من الفقهاء، لا سيما وأنها قامت بالتوفيق بين الشريعة والحقيقة، وخلقت نوعا من التكامل بين الفقه والتصوف ليحصل الكمال في الدين.

---

[37] - ابن عسكر، دوحة الناشر، ص30. 34. 59.

[38] - عن ترجمته ينظر" أحمد المقري، نفح الطيب، 279/5.

وتمكنت بذلك من تحقيق اندماج هذين الفئتين الدينيتين والاجتماعيتين الكبيرتين في فئة واحدة، تمتّنت بوحدتهما بنية الزاوية واستكملت شروط هيمنتها على المجتمع، وبذلك ظلت مؤسسة الولاية والصلاح الدرع الواقي للإنسان المغربي والحصانة السيكولوجية، التي كان يستعين بها في مجابهته لقساوة الحياة اليومية[39]، وهي في الوقت نفسه التي عملت على ترسيخ مبادئ الدفاع عن وحدة التراب وحوزة البلاد وكيانها، وإنقاذ المغرب من فقدان هويته، وجنبته مصير السكان الأصليين للعالم الجديد.

عموما فقد تبلور النموذج الشاذلي بدأً بالحركة الإصلاحية التي قادها الشيخ ابن عباد أواخر ق8هـ/ 14م، والتي هدفت إلى دعم الدولة المرينية خلال فترة نكوصها. وتطورت كنموذج إصلاحي مع الجزولية أرست قواعد حركة صوفية نجحت في إقامة سلطة سياسية مثلها السعديون، وتمكنت من مجابهة تحديات العصر. ومع الزروقية ظل هذا النموذج الصبغة الدينية للدول التي جاءت فيما بعد، وتدثرت الحركة الشاذلية بالمجتمع والدولة حتى غدت مؤشرا على اكتساح بنية الزاوية للمجال السياسي، ومهدت لانتقال تاريخ المغرب من حقبة الدولة القائمة على عصبيات القبائل كما شاع خلال العصر الوسيط، إلى حقبة دولة الشرفاء القائمة على أكتاف مشايخ الزوايا والطوائف[40].

ويعد وصول السعديين إلى سدة الحكم بالارتكاز على النسب الشريف تحولا مهما في منطق قيام الدول بالمغرب، فهل الأمر مرتبط بتقوية نفوذ الأشراف داخليا، أو بفعل الوجود البرتغالي على السواحل المغربية؟

لقد التف المغاربة في الجنوب حول الأشراف من أجل الوقوف في وجه الغزاة الإبريين، وساهم تمركز المتصوفة وانتشارهم في البوادي في منح القرن 9هـ/ 15م طابعه التحولي، وكان لذلك دور حاسم في تفجير الأوضاع التي عرفها المغرب في القرن الموالي، وذلك بتمكن متصوفة البوادي من تنظيم مجالاتهم[41] والتعبئة ضد البرتغاليين الغزاة وضد حكام بني وطاس المتقاعسين والمتخاذلين، وبذلك ستتأهل الزوايا للقيام بمنعطف التحول في مسلسل قيام الدولة بالمغرب عبر التعبئة ضد تزايد الخطر المسيحي على السواحل، وهو ما سيمنح الزاوية فرصة الدعوة إلى إحياء فريضة الجهاد، ومبايعة أسرة شريفة مغمورة كان لها نفوذ بمنطقة درعة على هذا الشرط.

---

[39] - عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا بين القرنين 15 و18م، ص118.

[40] - محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/ 12- 15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م، ص125.

[41] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 309. أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه محمد حجي وآخرون، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1401هـ/ 1981م، 403/2.

بويع محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله عام 916هـ/ 1511م أميرا للجهاد في مدينة تِيدْسي[42] بالسوس، بمباركة الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي شيخ الجزولية بالجنوب المغربي، وظلت منطلقا لعملياته الجهادية في اتجاه أكادير الذي سيطر عليه البرتغاليون منذ 918هـ/ 1513م، وتمكن السعديون من دخول مدينة مراكش سنة 930هـ/ 1523م، مستفيدين من زخمها السياسي، ووسعوا نفوذهم على مجال درعة الغنية بمواردها الاقتصادية، ونجحوا في محاربتهم للوطاسيين والبرتغاليين في الشمال، فمدوا نفوذهم على مختلف المناطق المغربية، فضلا عن إكساب المغرب هيبة على الصعيد الخارجي، ووضع حد للأطماع الخارجية، وتسابقت الدول لربط العلاقات معه، عقب معركة واد المخازن يوم 21 جمادى الأولى 986هـ الموافق لـ 4 غشت 1578م.

[42] - يصفها الحسن الوزان بقوله: "تيدسي مدينة كبيرة تحتوي على 4000 بيت... وأرضها خصبة ومنتجة، ينبت فيها كثير من الحبوب وقصب السكر ونبات النيلة. كما أن هناك من سكانها من يتاجر مع بلاد السودان... وقد سلّمت تيدسي نفسها للشريف الذي أقام بها ديوانَ حكمه". وصف إفريقيا، 119/1.

لائحة المصادر والمراجع:

- ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1976م.
- ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965م.
- أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه محمد حجي وآخرون، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1401هـ/ 1981م.
- أحمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.
- أحمد بوشرب، المغرب في القرن الخامس عشر 1415 - 1510م، أضواء على قرن مغمور، تقديم أحمد التوفيق، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 2021م.
- أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور (قبيل غشت 1481 - 1541م)، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1984م.
- أحمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 1997م.
- تاريخ العالم في القرن الخامس عشر، تنسيق بيير موني وجوليان لو ازو ويان بوتان، إشراف باتريك بوشرون، نسق الترجمة وراجعها لطفي بوشنتوف، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء والمركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، 2022م.
- جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1986م.
- الحسن الوزان (ليون الأفريقي)، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت- دار الغرب الإسلامي، الرباط- الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1980 و1982.
- خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م.
- دافيد لوبش، التوسع البرتغالي في المغرب، ترجمة عثمان المنصوري، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، 2020م.
- عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982م.
- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط المغرب، الطبعة الثالثة، 1427هـ/ 2006م.
- عبد اللطيف الشادلي، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء 1989م.
- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا بين القرنين 15 و18م (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012م.
- مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 1984م.
- محمد القبلي، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط مقدمات أولية وقضايا، منشورات الفنك، الدار البيضاء، 1998م.
- محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987م.
- محمد بن أبي بكر الحضرمي، السلسل العذب والمنهل الأحلى، تحقيق مصطفى النجار، نشر الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، 1988م.
- محمد بن القاسم بن عبد المالك الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، خرجه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1969م.
- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الانفاس، الطبعة الحجرية، فاس، 1316هـ
- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1977م.
- محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/ 12- 15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م.

- المغرب في عهد الوطاسيين من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان، تنسيق محمد استيتو، ضمن سلسلة دراسات وأبحاث تاريخية، منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، 2011م.
- يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، نشر كلية الآداب أكدال، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984م.